

درس 99 من مراسلة الملوك إلى فتح مكة

مراسلة رسول الله صلى الله عليه وسلم للملوك

بعد تلك الهدنة التي تمت بصلح الحُدَيْبِيَّةِ أَمِنَ المسلمون شَرَّ قَرِيشٍ، وأصبحت طرق المواصلات مع سائر الجهات متيسرة، فشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة وتعميمها، فكتب ملوك الأرض يدعوهم وأمهم إلى الإسلام، واتخذ له خاتماً نقشه: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ).

فبعث دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ (من قبيلة كلاب) بكتاب إلى قيصر ملك الروم وكان بالفدس، فلما وصله الكتاب، وكان أبو سفيان بالشام في تجارة، فاستدعاه وسأله عن نَسَبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نَسَبٍ. فسأله: هل تكلم بهذا القول أحدٌ قبلك؟ فقال: لا. فسأله هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فقال: لا. فسأله: هل كان من آبائه ملك؟ فقال: لا. فسأله: هل أشرف الناس يتبعونه أم ضَعُفَاؤُهُمْ؟ فقال: بل ضَعُفَاؤُهُمْ. فسأله: فهل يزيدون أم يَنْقُصُونَ؟ فقال: بل يزيدون. فسأله: فهل يَرْتَدُّ أَحَدٌ منهم كراهية في دينه؟ فقال: لا. فسأله: هل يَعْذِرُ إِذَا عَاهَدَ؟ فقال: لا. فسأله: هل قاتلتموه، وكيف حَرَبْتُمْ وَحَرَبْتُمْ؟ فقال: حَارَبْنَا، وكانت الحربُ بيننا وبينه سجالاً، مَرَّةً لَنَا وَمَرَّةً عَلَيْنَا. فسأله: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فقال: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وَيَهَيِّئْ عَمَا كَانَ يَعْبُدُهُ آبَاؤُنَا، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. فاستنتج ذلك الملكُ مما ذَكَرَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وقال لأبي سفيان: إن كان ما كَلَّمْتَنِي بِهِ حَقًّا فسيملكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، ثم جمع عظماء الروم وحادثهم في انبأع هذا النبي، ففَقَرُوا وقد غلب عليه حبُّ مَلِكِهِ فلم يُسَلِّمْ، ولكنه رد دِحْيَةَ رداً جميلاً.

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عَمِيرٍ بكتابٍ إلى أمير بُصْرَى، فلما بلغ مُؤْتَةً من قرى الشام تعرض له شَرْحَبِيلُ الْعَسَالِيِّ فقتله، ولم يُقْتَلْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسولٌ غَيْرُهُ.

وأرسل عليه الصلاة والسلام كتاباً إلى أمير دمشق التابع لملك الروم، فلما وصله الكتاب وقرأه رمى به واستعد لحرب المسلمين، واستأذن ملكه في ذلك فلم يأذن له. وأرسل عليه الصلاة والسلام حاطب بن أبي بلتعة بكتابٍ إلى الْمُقَوْسِ أمير مصر من قِبَلِ ملك الروم، وكان بالإسكندرية، فلما قرأه قال لحاطب: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو علي من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال له حاطب: أَلَسْتَ تشهد أن عيسى رسول الله هو ابنُ الله؟ فَلَِمَ لَمْ يَمْنَعَهُ اللَّهُ حِينَ أَخَذَهُ قَوْمُهُ لِيَقْتُلُوهُ؟ فقال المقوقس لحاطب:

أحسننت، ولقد نَظَرْتُ في أمر هذا النبيِّ فوجدته لا يأمر بمَزْهُودٍ فيه، ولا يَنْهَى عن مرغوبٍ فيه، ولم أجدهُ بالساحر الضارِّ، ولا بالكاهن الكدَّاب، وسأنظر. ثم كتب ردَّ الجوابِ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامٍ لا اعترافَ فيه ولا إنكار، وأهدى له جاريتين، إحداهما ماريَّة التي تَسْرَى بها عليه الصلاة والسلام وأتى منها بولده إبراهيم عليه السلام.

وأرسل عليه الصلاة والسلام كتابا إلى النجاشيِّ ملك الحبشة، فلما قرأه قال للرسول: إني أعلم والله أن عيسى بَشَّرَ به، ولكن أعواني بالحبشة قليل. وأرسل إلى كِسْرَى ملك الفرس فاستكبر ومَزَّقَ الكتاب، فمزق الله تعالى مُلْكُهُ كُلَّ مُمَزَّق.

وأرسل إلى المُنْذِر بن ساوَى ملك البحرين، فأسلم وأسلم معه بعضُ قومه، وأقرَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم أميراً من قبَلِه على جهة البحرين. وأرسل إلى جعفر وعبد الله ابني الجُلَنْدِيِّ مَلِكِي عُمان، فأسلما بعد أن سألا عما يأمر به النبي ويَنْهَى عنه، فقال لهما رسول النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأمر بطاعة الله عز وجل ويَنْهَى عن معصيته، ويأمر بالبر وصِلَةِ الرَّحِم، ويَنْهَى عن الظلم والعدوان والزَّنا وشرب الخمر؛ وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. وأرسل عليه الصلاة والسلام إلى هُوْدَةَ بن عليِّ ملك اليمامة، فطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل له بعض الأمر فلم يُجِبْه.

غزوة خيبر

بعد أن تم صلح الحُدَيْبِيَّة واستراح المسلمون من غزوات قريش، رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يستريح أيضاً من أعدائه القريبيين الذين يتربصون به الشر، وهم أهل خَيْبَر الذين حَزَبُوا الأحزاب على المسلمين في غزوة الخندق، فخرج صلى الله عليه وسلم إلى خَيْبَر في أول السنة السابعة للهجرة، وكانت خَيْبَر مُحَصَّنَةً بثمانية حُصُون، فعسكر المسلمون خارجها، وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم لئيرُهِبُهُمْ، فلما رأهم مُصِرِّينَ على القتال بدأهم بالمُرَاماة، واستمروا في المُناوِثَةِ سبعة أيام، ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقعهم، وتبعوهم حتى دخلوا أول حصن، فانهزم الأعداء إلى الحصن الذي يليه، فقاتلوا عنه قتالاً شديداً حتى كادوا يَرُدُّونَ المسلمين عنه، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم هذا الحصنَ حتى ألجأوهم إلى الحصن الذي يليه، وحاصروهم فيه ومنعوا عنهم جداول الماء، فخرجوا وقاتلوا حتى انهزموا إلى حصنٍ آخر، وهكذا حتى لم يبق غير الحصنين الأخيرين فلم يقاوم أهلُهُما، بل سلَّمُوا طالبين حَقْنَ دمائهم، وأن يخرجوا من أرض خَيْبَر بَدْرَارِيهِمْ، لا يأخذ الواحدُ منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، فأجابهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لذلك، وَعَنِمَ

المسلمون من خَيْبَرَ غنائم كثيرة من دروع وسيوفٍ ورماح وأقواسٍ وحليٍّ وأثاثٍ ومتاعٍ وغنمٍ وطعامٍ.
وقد قُتِلَ من اليهود في هذه الغزوة ثلاثة وتسعون قتيلاً، واستشهد من المسلمين خمسة عشر شهيداً.
وفي هذه الغزوة أهدت امرأة يهوديةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذراعَ شاةٍ مسمومةٍ فأخذ منها مُضغَةً ثم لَفَطَهَا، حيث أعلمه الله تعالى أنها مسمومة، وقد اعترفت تلك المرأة بما فعلت، وقالت: قُلْتُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا لَنْ يُضَرَّ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَرَاخُنَا اللَّهُ مِنْهُ. فَعَفَا عَنْهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
وبعد فتح خَيْبَرَ أرسل صلى الله عليه وسلم إلى يهود قَدَك، فصالحوا على أن يتركوا له أموالهم ويحِقْنَ دماءَهم، فأجابهم لذلك.
وبعد رجوع المسلمين من خَيْبَرَ قَدِمَ من الحبشة بقية من كان فيها من المهاجرين، منهم جعفر بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وقومه، بعد أن أقاموا بها عشر سنين.
وقد أسلم بعد غزوة خيبر ثلاثة من عظماء الرجال: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة العبدي.

عمرة القضاء

ولما حال الحَوْلُ على صلح الحُدَيْبِيَّةِ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه إلى الحُدَيْبِيَّةِ الذين صُدُّوا معه عن البيت عام الحُدَيْبِيَّةِ، ليقضوا تلك العمرة التي صُدُّوا عنها حسب عهدة الحُدَيْبِيَّةِ، فلما وصلوا إلى مكة خرجت منها قريش ودخلها المسلمون وقضوا عُمرَتَهُمْ، وأقاموا بمكة ثلاثة أيام وانصرفوا إلى المدينة بسلام.

سرية مؤتة

في منتصف السنة الثامنة للهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل، للاقتصاص من عمرو بن شَرَحْبِيل أمير بُصْرَى من قِبَل الروم لقتله الحارث بن عَمِير الذي بعثه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام، فلما بلغ هذا الجيشُ أَرْضَ مُؤْتَةَ قابلهم الروم والعرب المُتَنَصِّرَةَ في مائة وخمسين ألفاً، وكان قائد المسلمين زَيْد بن حارثة فُقَيْل، فنوَّى القيادة جعفر بن أبي طالب فُقَيْل، ثم عبدُ الله بن رَوَاحَةَ فُقَيْل، وكان هذا الترتيب بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد أن استشهد من سَمَاءَهُمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم اتفق الجيش على تَوَلِيَّةِ خالد بن الوليد، فجعل يخادع الأعداء حتى ألقى الله الرعبَ في قلوبهم وانصرفوا.

فتح مكة

كانت بطون خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما كانت بنو بكر بن وائل في عهد قريش، وكان بين هذين الجيشين دماء، فثار بنو بكر على خزاعة، وساعدتهم قريش بالسلاح والأنفس وقاتلواهم، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرُّ من خزاعة وأخبروه بنقض قريش للعهد، فلما أحست قريش بما فعلت جاء منهم أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُقويَّ العهدَ ويزيدَ في المدة فلم يجبه إلى ذلك، وتأكد المسلمون من نقض قريش للعهد، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يتجهزوا وكنم عنهم الوجه، فاجتمع لذلك عشرة آلاف من المسلمين من المهاجرين والأنصار وطوائف من العرب، وخرج بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعشر مضت من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة، وساروا حتى نزلوا بمرَّ الظهران بقرب مكة بدون أن تعلم قريش بوجهتهم.

وقد كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة بأهله، فقابله عليه الصلاة والسلام في الطريق فأرجعه معه، وبعث بعيليه إلى المدينة. وبينما جيش المسلمين بمرَّ الظهران إذ خرج أبو سفيان ومعه أحران يتجسسون الأخبار، لما كانوا يتوقعونه من عدم سكوت المسلمين على نقض العهد، فظفرت بهم جنود المسلمين، وكان أول من لقيَ أبا سفيان العباس بن عبد المطلب، فأخذه معه حتى وصل به إلى خيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمنه وسلمه للعباس. فلما أصبح أسلم وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

ثم أمر العباس أن يقف بأبي سفيان حيث يسير الجيش حتى ينظر إلى المسلمين، فجعلت القبائل تمر عليه كتيبة كتيبة حتى انتهت، وانطلق أبو سفيان إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، لقد جاءكم محمدٌ بما لا قبيل لكم به.

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُركَزَ رأيته بالحجون، وهو جبلٌ بمعلاة مكة، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل مكة بمن معه من كدى، وهو جبلٌ بأسفل مكة من جهة اليمن، ودخل صلى الله عليه وسلم ومن معه من كداء، وهو جبلٌ بأعلا مكة، ونادى مُناديه: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. واستثنى من ذلك جماعة أهدر دماءهم لشدة ما ألحقوا بالمسلمين من الأذى، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعكرمة بن أبي جهل وكعب بن زهير ووحشي قاتل حمزة وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وهبار بن الأسود والحارث بن هشام، وهؤلاء قد أسلموا.

وقد صادف جيش خالد بن الوليد في دخوله مقاومة من طائشي قريش فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين، واستشهد من فرقته اثنان. وأما فرقة رسول الله صلى الله

السيرة النبوية: من مراسلة الملوك إلى فتح مكة

عليه وسلم فلم تُصَادِفْ مقاومة، وقد دخل عليه الصلاة والسلام راكباً راجِلَتَهُ، وهو مُنْحَنٌ عَلَى الرَّجْلِ تَوَاضِعاً لِلَّهِ تَعَالَى، وَشَكَرَ لَهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعُظْمَى، وَكَانَ ذَلِكَ صُبْحَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِعَشْرِ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ.

نَصِبَتْ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ قُبَّةً فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَشَارَ بِأَنْ تُرَكِّزَ فِيهِ الرَّايَةَ، فَاسْتَرَا حَ فِي الْقُبَّةِ قَلِيلاً، ثُمَّ سَارَ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ وَبِجَانِبِهِ أَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ وَطَافَ سَبْعاً عَلَى رَاجِلَتِهِ، وَاسْتَلَمَ الْحَجَرَ بِمَحْجَنِهِ، وَكَانَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ أَصْنَامٌ كَثِيرَةٌ؛ فَكَانَ يَطْعُنُهَا بَعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ.

بعد أن أتم رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافه أمر بالأصنام فأزيلت من حول الكعبة، وطهرت الكعبة من هذه المعبودات الباطلة، ثم أخذ عليه الصلاة والسلام مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة الشيباني، ودخلها وكبر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه، ثم جلس في المسجد والناس حوله ينتظرون ما هو أمر به في شأن قريش، فقال عليه الصلاة والسلام: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَطْتُونَنِّي فَأَعِلُّ بِكُمْ؟ قالوا: خيراً، أَخُ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، فقال: ادْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ. ورد مفتاح الكعبة لسادنيها، ثم خطب في الناس خطبة أبان فيها كثيراً من أحكام الدين، وبعد أن أتمها شرع الناس يبايعونه على الإسلام، فأسلم كثير من قريش.

وممن أسلم في ذلك الوقت معاوية بن أبي سفيان، وأبو فحافة والد الصديق، وأسلم بعض من أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه في ذلك اليوم، وبايع فقبلت بيعة، وبعد أن تمت بيعة الرجال بايعه النساء.

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها الإسلام على ظهر البيت.

وقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً، أرسل في أثنائها خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل (العزى)، وهو أكبر صنم لقريش، وأرسل عمرو بن العاص لهدم (سواع) وهو أعظم صنم لهدنيل، وبعث آخر لهدم (مناة) وهي صنم لخزاعة.